قراءة في أسباب النزول
«للواحدي»

الدكتورة هيا ثامر
مدرس بقسم التفسير والحديث
كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية
جامعة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد :

فقد جاءت رسالة الإسلام عامة لجميع الناس ، ولهذا كان نداء جميع الأنبياء السابقين : « ياقوم » وكان نداء سيدنا محمد « ﷺ » وشعاره « يا أيها الناس » وقد قضى الله تعالى لهذه الرسالة أن تكون خالدة إلى يوم الدين ، لا تلحقها رسالة ، أو تنسخها شريعة ، ولهذا قامت على أسس واعتبارات (إنسانية) ولم تقم على أسس بيئية ، أو على أي لون من ألوان الاعتبارات المحلية أو الموقوته أو الطارئة ! .

قال تعالى في وصف خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام : ﴿ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾(١) فكانت قاعدة التحريم والتحليل في هذه الشريعة الخالدة : الخبيث والطيب أي أن ما كان من جنس الخبيث فهو حرام ، وسيبقى حراماً إلي يوم القيامة وإن ما كان من جنس الطيبات فهو حلال ، وهو حلال إلي يوم القيامة .

هذا في الوقت الذي قال في شأن بني إسرائيل - على سبيل المثال - ﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ ﴾(٢) لأن هذه - الشريعة الإسرائيلية - وسار شرائع الأنبياء السابقين جاءت رعاية لقوم بأعينهم في زمن بعينه ! ومن هنا كانت شريعة الإسلام هي الشريعة الوحيدة الواجبة الاتباع وإن نسخاً أو تعديلاً على أحكام الكتاب والسنة - مصادر الشريعة الثابتة والباقية إلى يوم الدين - لا يطرأ عليها حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، اللهم إلا إذا جاز على طبائع الأشياء التي خلقت عليها أن تتبدل ! وعلى طبيعة الإنسان أو على خلقه وتكوينه أن ينسخ ويعدل !! وهيهات(٣) .

---

(١) الآية : ١٥٧ سورة: الأعراف . (٢) الآية: ١٦٠ سورة : النساء .

(٣) الدكتور عدنان زرزور ، في الفكر والثقافة الإسلامية ص ١٤٠ - المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الرابعة ١٩٩١ .

قال الله تعالى : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾(١) .

ولكن هذه الرسالة العامة والخالدة أو التي جاءت أحكامها مفصلة على الإنسان خارجاً من إطار الزمان والمكان بحسب عبارة بعض الباحثين(٢) نزلت بعضها في القرآن الكريم بمناسبات معينة وأسباب خاصة ، وقد عرفت هذه الأسباب عند العلماء بأسباب النزول وقد عرضوا لها في أبواب التفسير في المصنفات الحديثية ، كما ذكروها في معرض تفسيرهم أو تفاسيرهم لآيات القرآن الكريم بطبيعة الحال .

وجملة ما يمكن فهمه أو تلخيصه عند النظر في هذه الأسباب مع مراعاة القاعدة القائلة : أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب نظراً لنزول الآيات بصيغة العموم .

أنها ـ أي هذه الأسباب لا تعدو أنها المناسبة التي استدعت ظهور الحكم ، أو إنزاله ووضعه موضع التطبيق ، أي بداية توقيت العمل به .

حصل هذا في زمان التنزيل وفي بيئته ـ العربية ـ في سياق هدم أوضاع الجاهلية ، وبناء أحكام الإسلام . . أو إقامة بناء الإسلام الذي استمر طيلة عصر التنزيل الذي استمر نحواً من ثلاث وعشرين سنة كما هو معلوم .

وقد أظهرت أسباب هذا النزول ، أو هذه (الوقائع) التاريخية ـ على قلتها ـ مدى (الواقعية) في تشريعات القرآن ، بمعنى نفي الطوباوية عنها أو نفي المثالية الخيالية التي ليست أكثر من رؤيا في عالم الخيال أو رسماً على الورق أو في الفراغ . كما فعل بعض الفلاسفة في (مدينته الفاضلة) ! على سبيل المثال(٣) .

وأشار بعض الباحثين من خلال ما أسماه « تصويب حركة التطبيق والتنفيذ » إلى الربط بين أسباب النزول وتنجيم القرآن ، بوصف هذه الأسباب حصلت في ظل هذا التنجيم الذي استمر نحواً من ثلاث وعشرين سنة : لأن

---

(١) الآية ٣٠ سورة : الروم .

(٢) عدنان محمد زرزور – إنسانية الثقافة الإسلامية ص – ٣٣ – المكتب الإسلامي – بيروت – الطبعة الثانية ١٩٨٠م .

(٣) عدنان محمد زرزور ـ مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ـ ١٠٠ ، ١٠١ ، دار القلم ـ دمشق ـ الطبعة الأولى ١٩٩٥ م .

هذه الأسباب ما كان لها أن توجد أو تكون لو أن نزول القرآن الكريم تم جملة واحدة . ! وقال في شرح هذا التصويب لحركة التطبيق : أن الآيات كانت تنزل « للدلالة على مواطن الخطأ ووجوه التقصير في تنفيذ الأحكام والتشريعات » قال : « وفي هذا تأكيد بالغ الأهمية على ضرورة استجابة الواقع للوحي أو النص استجابة تامة غير منقوصة . . . ومن ثم لتقديم الصورة المثلى لهذه الحركة عبر عصور التاريخ ، أو التي يجب أن تحتذى عبر هذه العصور بعد أن قدم جيل التنزيل النموذج الأفضل ، والمثال الذي يحتذى »(١) .

والغريب بعد ذلك أن يذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى النقيض من هذه الصورة أو إلى الضد من هذا كله ، فلا يرى في أسباب النزول سوى « أسبقية الواقع على الفكر ، بل تحكم الواقع في الوحي أو النص وكأن « الوحي » لا يعدو أن يكون « استجابة » آنية أو ظرفية موقوته لا فرق بينه وبين أي « رأي » أو اجتهاد بشري أو إنساني ! أو بعبارة أخرى : كأن الوحي يجري عليه ما يجرى على سائر الأفكار والآراء والنظريات البشرية ، أو كأنهما سواء بسواء ! .

ولاشك في أن الذي يستعرض محاولات الدكتور حسن حنفي في كتابه (التراث والتجديد) وفي بعض ندواته وكتبه الأخرى يصعب عليه أن يجد فيها ما يشير إلى أي إعتراف ظاهر بعلو النص القرآني أو الوحي على آراء البشر الموقوتة أو الظرفية ، أو التي جاءت نتيجة أو استجابة لواقع بيئاتهم عبر عصور التاريخ ! ! يؤكد هذا أن الدكتور حنفي ذهب في تعريفه للتراث إلى القول إنه مجموعة التفاسير التي يعطيها كل جيل بناء على متطلباته ، خاصة ، ويضيف « أن الأصول الأولى ويعني بها ـ الكتاب والسنة ـ التي صدر منها التراث تسمح بهذا التعدد ، لأن الواقع هو أساسها الذي تكونت عليه »! ولقد كان على الدكتور حنفي من أجل الوصول إلى هذه النتيجة أو من أجل دعم هذا الرأي أن يزعم أن آيات القرآن كلها نزلت بأسباب خاصة أو معينة ، لأنه لو لم يفعل ذلك لبطل زعمه أن الوحي جاء استجابة للواقع وطبقاً لمتطلباته ! .

---

(١) عدنان زرزور ـ المرجع السابق ص ٩٨ ـ ٩٩ .

وأقل ما يوصف به هذا الزعم أنه باطل لم تعرفه كتب الحديث ولا كتب التفسير ولا الكتب الخاصة بأسباب النزول ، على الرغم من توسعها المفرط وغير العلمي أحياناً في مفهوم أسباب النزول .

الأمر الذي دعانا لمثل هذه الدراسة لكتاب الواحدي ـ رحمه الله ـ يقول حسن حنفي :

« كل آيات الوحي نزلت في حوادث بعينها ! ولا توجد آيات أو سور لم تنزل بلا أسباب » قال : والسبب هو الظرف أو الحادثة أو البيئة التي نزلت فيها الآية ، وإذا كان لفظ النزول يعنى الهبوط من أعلى إلى أسفل ، فلفظ السبب إنما يعنى الصعود من أسفل إلى أعلى ، ويضيف : « ولما كانت الآية لا تنزل إلا بعد وقوع السبب كان الأدنى شرط الأعلى »^(١) .

أما معتمده أو معوله في هذا الزعم الباطل ، فهو كتاب « أسباب النزول » للواحدي وحده دون سواه لا لأن الواحدي وحيد عصره بل لأن الدكتور حنفي وجد في بعض رواياته مطيته إلى ما يريد ، علماً بأن أي مطلع على هذا الكتاب يعلم أن هذه الروايات ، ما صح منها وما لم يصح وما كان منها داخلاً في أسباب النزول ، حتى بالمفهوم أو التعريف الذي ذكره د . حسن حنفي وما كان ليس بداخل . . لا تغطي جميعها إلا جزءاً يسيراً من آيات الكتاب العزيز ، فمن أين للدكتور أن يأتي بهذا التعميم وهذا الإطلاق . . . وما بنى عليهما من نتائج ، وما دوَّن حولهما من آراء شديدة الفساد ، وشديدة التخبط ، وغليظة التجاوز .

يقول د . حنفي في كتاب الواحدي : (وهو المرجع الذي اعتمدنا عليه في هذه الدراسة ولم أشأ الاعتماد على أكثر منه)^(٢) .

---

(١) د . حسن حنفي ـ « الوحي والواقع دراسة في أسباب النزول » ندوة ومواقف الإسلام والحداثة ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ـ دار الشافي ـ الطبعة الأولى ١٩٩٠ م .

(٢) المرجع السابق ، نفس الموضع .

هذا الموقف تطلب منا التحرك على محورين :

الأول : تصحيح الفهم الخاطىء لأسباب النزول ، انطلاقاً من فهم خاطىء أيضاً للتراث أو تأسيساً عليه فيما يبدو إذ (طبقاً لهذا التفسير الجديد الذي يقرر أصالة الواقع وتبعية التراث ، يغدو من اللازم وقد تغير الواقع مراراً عديدة أن يكون لنا الآن تراثنا القديم المرتبط مرحلياً بواقع مضى وتولى قد ذهب هو الآخر مع واقعه الذي تخطاه التاريخ المعاصر وخلفه وراءه . . .)(١) .

الثاني : قراءة أسباب النزول للواحدي باعتباره المرجع الوحيد الذي اعتمده الباحث وانطلق من خلاله لتقرير هذا الفهم الخاطيء للتراث في ضوء أسباب النزول . ونبدأ بالحديث عن المحور الأول الذي يتطلب منا أولاً : تعريف سبب النزول لبيان مفهومه وتحديد دائرته ، بدل هذه الفوضى والأخلاط التي ذكرها د . حسن حنفي ثم الحديث ـ ثانياً ـ عن دور سبب النزول وفوائده ووظيفته .

« التعريف بأسباب النزول » :

يقسم القرآن الكريم من حيث ارتباط الآيات بأسباب نزولها إلى قسمين :

أ - قسم نزل ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب ، إنما أنزله الله سبحانه وتعالى لغرض هداية الخلق إلى طريق الحق ، مثل وصف مشاهد القيامة ، أو وصف الأمم الغابرة وغيرها .

ب - قسم نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب كأن يكون جواباً على سؤال أو تصحيحاً لخطأ وقع أو بياناً لحادثة وقعت(٢) .

---

(١) د . أحمد الطيب ـ التراث والتجديد ـ حولية كلية الشريعة ـ جامعة قطر العدد ١١-١٩٩٣ م .

(٢) جلال الدين عبدالرحمن السيوطي ـ الاتقان في علوم القرآن ١ ٢٨ ـ دار الندوة الجديدة ـ بيروت .

ويقول السيوطي في مقدمته لأسباب النزول :

كثيراً ما يذكر المفسرون لنزول الآية أسباباً متعددة ، وطريق الاعتماد في ذلك أن تنظر إلى العبارة الواقعة ، فأن عبر أحدهم بقوله نزلت في كذا ، والآخر نزلت في كذا ، وذكر أمراً آخر . .

إن هذا مراد به التفسير لا ذكر سبب النزول ، وإنما يذكر تصانيف أحكام القرآن(١) .

ثم « أن الصحابة والتابعين كثيرا مايقولون نزلت الآية في كذا وكذا وكان غرضهم ما صدقت عليه الآية وذكر بعض الحوادث التي تشملها الآية بعمومها ، سواء تقدمت القصة أم تأخرت إسرائيلياً كان ذلك أو جاهلياً ، أو إسلامياً ، إستوعب جميع القيود أو بعضها»(٢) .

ومن الإفراط في علم أسباب النزول أن نتوسع فيه ونجعل منه ما هو من قبيل الأخبار عن الأصول الماضية والوقائع الغابرة(٣) .

ولهذا عرف سبب النزول بأنه : مانزلت الآية أو الآيات مبينة لحكمة أيام وقوعه ، وهذا القيد « أيام وقوعه » يعتبر شرطاً جوهرياً لبيان سبب النزول وتمييزه عن الآيات التي نزلت للإخبار بالوقائع الماضية(٤) .

ولكن الذي حدث أن (أولع المفسرون بذكر أسباب النزول وحشدهم سبباً

---

(١) جلال الدين السيوطي ، أسباب النزول ص ٧ تحقيق قرني أبو عميرة ، مكتبة نصير ، القاهرة ، بدون تاريخ .

(٢) محمد جمال الدين القاسمي ، محاسن التأويل ـ ١/ ٣١ ، تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقى ، دار إحياء التراث الغربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٤ .

(٣) مناع القطان ، مباحث في علوم القرآن ، ص ٧٨ ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الرابعة ١٩٧٦ م .

(٤) انظر عدنان محمد زرزور ، علوم القرآن ، ص ١٢٧ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٤ م .

ونور الدين عنر ، علوم القرآن الكريم ، ص ٤٦ ، دار الخير ، مطبعة الصباح ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٩٣ م .

لكل آية بما فيه الضعيف والموضوع مما أدى إلى حجب النص القرآني عن الرؤية الصحيحة والفهم القويم)[1] .

يقول محمد عبده :

و(من عجيب شأن رواة أسباب النزول أنهم يمزقون الطائفة الملتئمة من الكلام الإلهي ويجعلون القرآن عضين متفرقة بما يفككون الآيات ويفصلون بعضها عن بعض ، وبما يفصلون بين الجمل الموثقة في الآية الوحدة فيجعلون لكل جملة سبباً مستقلاً كما يجعلون لكل آية من الآيات الواردة في مسألة واحدة سبباً مستقلاً . . .)[2] .

يضاف إلى ذلك ما علق به الطاهر ابن عاشور حول دور بعض المفسرين في التعامل غير السلم مع أسباب النزول إذ يقول : (ولكني لا أعذر أساطين المفسرين الذين تلقفوا الروايات الضعيفة فأثبوتها في كتبهم ولم ينبهوا على مراتبها قوة وضعفاً حتى أوهموا كثيراً من الناس أن القرآن لاتنزل آياته إلا لأجل حوادث تدعو إليها وبئس هذا الوهم فأن القرآن جاء هادياً إلى ما به صلاح الأمة في أصناف الصلاح فلا يتوقف نزوله على حدوث الحوادث الداعية إلى تشريع الأحكام)[3] .

فوائد أسباب النزول :

عندما نقف أمام النص القرآني لنفهمه فهماً صحيحاً ودقيقاً لابد من معرفة الآيات التي نزلت بعد واقعة أو سؤال ولابد من معرفة قصتها وسبب نزولها لأن لمعرفة سبب النزول فوائد عديدة ، وهي لازمة لمن أراد علم القرآن .

---

(١) فاروق حماد ، مدخل إلى علوم القرآن والتفسير ، ص ١٦٢ ، مكتبة المعارف ، الرباط ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩ م .

(٢) محمد رشيد رضا ، تفسير المنار - ٢/١١ - دار المعرفة ، بيروت ، الطبعة الثانية .

(٣) محمد الطاهر ابن عاشور ، التحرير والتنوير ، ١/٤٦ - الدار التونسية ، تونس ١٩٨٤ م .

وفوائد معرفة أسباب النزول كثيرة ، قال ابن تيمية :

١ - معرفة السبب تعين على فهم الآية ، فأن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ولهذا كان أصح قولي الفقهاء أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف : رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وآثارها(١) ويرى السيوطي أن من فوائده الوقوف على المعنى وإزالة الإشكال(٢) .

بل يذهب الواحدي إلى أبعد من ذلك إذ يرى (امتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها)(٣) .

٢ - ويرى الزرقاني أن من فوائد أسباب النزول :

معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فيما شرعه بالتنزيل وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن .

٣ - تخصيص الحكم بالسبب ، عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ .

٤ - معرفة من نزلت فيه الآية على وجه التعيين حتى لا يشتبه بغيره .

٥ - تيسير الحفظ وتسهيل الفهم ، وتثبيت الوحي ، في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سببها(٤) .

٦ - وثمة فائدة أخرى عظيمة لأسباب النزول ، وهي أن نزول القرآن عند حدوث حوادث دلالة على إعجازه من ناحية الارتجال ، وهي إحدى طريقتين لبلغاء العرب في أقوالهم ، فنزوله على حوادث يقطع دعوى من ادعوا أنه أساطير الأولين(٥) .

---

(١) ابن تيمية ، مقدمة في أصول التفسير ، ص ٤٧ تحقيق د . عدنان زرزور ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٢ م .

(٢) السيوطي ، أسباب النزول ، مرجع سابق ص ٥ .

(٣) أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي ، أسباب النزول ص ٣ ، عالم الكتب ، بيروت .

(٤) محمد عبدالعظيم الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، ١/١٠٩- دار إحياء الكتب العربية .

(٥) الطاهر ابن عاشور ، مرجع سابق ١/٥٠ .

هذا وقد انتهج علماء المسلمين طريقاً في بيان المنهج الواضح لمعرفة أسباب النزول إذ لا سبيل إلى معرفتها إلا بالرواية والنقل الصحيح ، وفي هذا يقول الواحدي : (ولا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا على علمها وجدوا في الطلاب[1] .

وانطلاقاً من هذا الفهم نجد الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور قد أخذ زمام المبادرة في التنبية على الطريق الصحيح لمعرفة أسباب النزول حيث أشار إلى ذلك في مقدمة تفسيره « التحرير والتنوير » حيث ذكر أنه تفحص أسباب النزول التي صحت أسانيدها فوجدها خمسة أقسام :

الأول : المقصود من الآية يتوقف فهم المراد منها على علمه ومنه تفسير ، مبهمات القرآن .

مثل قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ .[2]

ونحو ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾[3] .

الثاني : حوادث تسببت عليها تشريعات وأحكام .

الثالث : حوادث تكثر أمثالها تختص بشخص واحد .

الرابع : حوادث حدثت وفي القرآن آيات تناسب معانيها سابقة أو لاحقة .

الخامس : قسم يبين مجملات ويدفع متشابهات[4] .

ولو حملنا كل أسباب النزول الواردة في كتابات الأقدمين والمعاصرين على هذه الأقسام الخمسة التى ذكرها ابن عاشور ، نجدها لا تخرج على ذلك بأي حال من الأحوال .

وجهد الشيخ - ابن عاشور - كما أورد منصب على دراسة الصحيح من

---

(١) الواحدي ، أسباب النزول ، مرجع سابق ص ٣ .

(٢) الآية : ١ سورة المجادلة .

(٣) الآية : ١٠٤ سورة البقرة .

(٤) الطاهر ابن عاشور ، مرجع سابق ١/٤٧ : ٥٠ .

الروايات ولكن كتب « أسباب النزول » حافلة بالصحيح وغيره فالمشكلة التي بين أيدينا ليست البحث عن الصحيح والضعيف إنما في الكثير من الأخطاء والتجاوزات التي جاءت في هذه الكتب بما فيها من صحيح روايات إذ حملت الآية عليه حملاً ولو لم يناسب . ومن هنا نبدأ . ومن هنا وقع اختيارنا لكتاب « أسباب النزول » للواحدي ميداناً لهذه الدراسة .

لماذا الواحدي ؟ :

١ - الواحدي سيكون نقطة بداية ومدخلاً للتغلغل في دراسة أسباب النزول لدى الآخرين كخطوة تالية بعد ذلك .
٢ - أسبقية الواحدي وتقدمه على كل من أفرد كتاباً في أسباب النزول ، واعتماد كل من كتب حول هذا الموضوع عليه .
٣ - شهرة كتاب الواحدي وكثرة من حققه، دون تمييز أو تصحيح لما جاء فيه من خلط في الروايات ، وبيان غثه من سمينه .
٤ - جهود الإمام السيوطي في موضوع أسباب النزول ومحاولة تجنبه لما وقع فيه الواحدي من أخطاء ـ بالرغم من بعض تحفظات لنا عليه ، نأمل أن تكون في دراسة لاحقة إن شاء الله .

وقد تمثلت جهود السيوطي كما ذكر في مقدمة كتابه « أسباب النزول » فيما يلي :

١ - الجمع الكثير والزيادات الكثيرة على ما ذكره الواحدي .
٢ - عزو كل حديث إلى من خرجه من أصحاب الكتب .
٣ - تمييز الصحيح عن غيره والمقبول من المردود .
٤ - الجمع بين الروايات المتعددة.
٥ - تنحية ما ليس من أسباب النزول(١).

---

(١) انظر السيوطي في أسباب النزول ـ المقدمة ـ.

على أن دراستنا لأسباب النزول عند الواحدي ستكون منصبة على ما ليس من أسباب النزول حسب ما يتوصل إليه جهدنا المتواضع ، وليس بحسب الصحة والضعف ، فلقد أخذ السيوطي على الواحدي اعتماده على الضعيف من الأحاديث .

ويقول بعض الباحثين : « وحقيقة الأمر أن الواحدي كان قليل البضاعة من الأحاديث كأستاذة الثعلبي ، وقد نقم عليهما العلماء إخراجهما أشياء قد رويت عن « سلسلة الكذب » وهي رواية السدي الصغير ، ويقتضينا الإنصاف أن نقول أن الواحدي والثعلبي لم ينفردا برواية الأحاديث الضعيفة ، فقد شاركهما جمهرة المفسرين وانفرد السيوطي بالإمامة في ذلك . . وإن في أشهر كتبه وهو الإتقان أحاديث كثيرة استغلها أعداء الإسلام في الطعن على القرآن »(١) .

وإذن فكل من الواحدي والسيوطي لم يسلم من الأخذ بالضعيف والغريب من الروايات وإن قدم السيوطي العذر لنفسه في مقدمة كتابه بالاحتراز عما وقع فيه الواحدي .

كتاب أسباب النزول للواحدي

طريقة الواحدي في أسباب النزول :

كان الواحدي(٢) يستعرض الآيات القرآنية حسب ترتيبها في المصحف بدءاً بالفاتحة وإنتهاء بالمعوذتين مشيراً إلى كون السورة مكية أو مدنية ، حسب أقوال العلماء في ذلك مع ذكر اختلافاتهم حول السورة ، إن وجد هناك اختلاف .

ثم يبدأ في ذكر الآيات التي جاء فيها أو ورد فيها سبب نزول ، ففي سورة

---

(١) السيد أحمد صقر ، كتاب أسباب النزول للواحدي ، صفحة ٣١، ٣٢ .

(٢) الواحدي أسباب النزول ـ تحقيق د . السيد الجميلي ـ دار الريان للتراث ص ٥٧ .
الواحدي على بن أحمد بن محمد بن علي بن متوية أبو الحسن الواحدي ـ مفسر ، عالم بالإدب نعته الذهبي بإمام علماء التأويل ـ مولده ووفاته بنيسابور (٤٦٨ هـ ـ ١٠٧٦ م) له البسيط والوسيط ـ والوجيز كلها في التفسير وله أسباب النزول . أنظر أعلام الزركلي ـ ٤ / ٢٥٥ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ الطبعة الخامسة ١٩٨٠ م .

البقـرة مثـلاً : أورد الواحدي عدداً من الآيات التي نزلت بسبب حسب رأيه وصلت إلى ستة وسبعين (٧٦) آية ذكر أنه جاء فيها سبب النزول .

ثم آل عمران التي جاء فيها ٤٩ آية وجد لها الواحدي روايات تدل على سبب نزولها ، فالنساء ٤٧ فالمائدة ٢٣ .

وكان الواحدي وهو يذكر رواياته حول سبب نزول هذه الآية أو تلك يورد الأسانيد التي أخذ عنها . ومثال ذلك ما جاء في سورة البقرة .

قال الواحدي في ذكر سبب نزول قوله تعالى : ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾(١) .

أخبرنا عمر بن عمر المزكي قال : حدثنا محمد بن مكي قال : أخبرنا محمد بن يوسف قال أخبرنا محمد بن اسماعيل قال : حدثني يحيى بن البشير قال : حدثنا شبابه عن ورقاء عن عمرو بن دينار عن عكرمه عن ابن عباس قال : كان أهـل اليمن يحجون ولا يتزودون يقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله عز وجل﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾وقال عطاء بن أبي رباح كان الرجل يخرج فيحمل كله على غيره . فأنزل الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى .

من خلال القراءة في أسباب النزول للواحدي تبين لنا أن الواحدي إبتدأ بذكر سبب نزول بعضاً من آيات القرآن الكريم التي أوصلها إلى ٤٦٥ آية أورد فيها رواياتاً بأسانيدها تدل على أن هذه الآيات لها أسباب بها فيها بعض السور .

حيث كانت سورة البقرة الأعلى نصيباً من روايات سبب النزول نظرا لطولها ثم يبدأ بعد ذلك العد التنازلي في تقلص أسباب نزول الآيات كلما إقتربنا من نهاية المصحف أو من قصار السور لتتحول إلى أسباب نزول سور بأكملها لا لآيات مثل سورة الضحى ـ العلق ـ القدر ـ الزلزلة ـ العاديات ـ الفيل ـ قريش ـ النصر ـ المعوذتين .

---

(١) الآية ١٩٧ : سورة البقرة .

وكان للسيوطي موقف واضح في أسباب النزول حيث استبعد بعض روايات الواحدي لأنها لا تدخل في أسباب النزول ـ أو لا تنطوي تحت هذا المفهوم بالإضافة إلى تعليقاته على بعض أسانيد الواحدي منها على سبيل المثال لا الحصر .

١ - في قوله تعالى : وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . الآية⁽¹⁾ .

أخرج الواحدي والثعلبي عن طريق محمد بن مروان والسدي هذه الآية في عبدالله بن أبي وأصحابه⁽²⁾ .

علق السيوطي على هذه الرواية بقوله « هذا الإسناد واهٍ جداً ، فإن السدي الصغير كذاب وكذا الكلبي ، وأبو صالح ضعيف » .

٢ - ولدى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا . . . ﴾ الآية⁽³⁾ .

علق السيوطي على سند الواحدي بقوله « عبدالغني واهٍ جداً »⁽⁴⁾ .

ولعل هذا الضعف في أسانيده أدى إلى تناقض واختلاف أسباب النزول التي أوردها في كتابه حتى ذكر وأدرج تحت مسمى أسباب النزول ما ليس منه .

(دراسة تطبيقية على نماذج من كتاب الواحدي) .

من خلال تتبعنا لأسباب النزول في كتاب الواحدي وجدنا أن هناك بعضاً من الروايات التي لا تدخل في نطاق هذا المضمون ، ولا ينطبق عليها هذا الوصف ، ومن خلال قراءتنا لهذه الروايات توصلنا إلى عدة مواقف لا يمكن أن يقال عنها تحت أي ظرف من الظروف أنها أسباب نزول .

نترجم هذه المواقف إلى نماذج يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أنواع أو محاور ثلاثة .

١ - ما نزل إبتداء دون سبب .

٢ - ما اتصل بحوادث التاريخ (كالقصص وأخبار السابقين) .

٣ - ما كان من قبيل الشرح والتفسير .

---

(١) الآية ١٤ : سورة البقرة .

(٢) انظر السيوطي ، أسباب النزول ص ١٠ .

(٣) الآية ٢٦ : سورة البقرة .

(٤) انظر الواحدي ص ٨، والسيوطي ص ١٢ « أسباب النزول » .

١ - مانزل ابتداءً :

أي دون سبب معين لأن القرآن جاء هادياً ومرشداً للناس إلى ما به قوام حياتهم في دنياهم وأخراهم (فمعظم آيات القرآن الكريم نزلت ابتداء أي بدون سبب نزول خاص أو معين ويدخل في ذلك الجانب الإعتقادي كله ، أو آيات الإيمان والإعتقاد ويتصل بهذه الآيات أو بهذا الجانب في القرآن الكريم سائر آيات العهد المكي بموضوعاتها الرحبة والمتعددة (الكون - الطبيعة - الإنسان - التاريخ) .

وبعض آيات هذا الجانب نزلت فهدمت (الواقع) القائم وعفت على آثاره أو أقامت على أنقاضه بناء شامخاً يأوي إليه الإنسان في جميع العصور ، كما أن بعضها الآخر أسست معارف جديدة ليست مرتبطة بواقع معين سواء أكان واقع عصر النزول أم غيره (مظاهر خلق الطبيعة ، وتسخير السنن ، وخلق الإنسان وحياة الأنبياء وتاريخ الأمم والحضارات . . . الخ وفي كلتا هاتين الحالتين فأن من سوء الفهم والقصد معاً أن يقال : « أن الوحي نزل حسب متطلبات الواقع أو أن يقال أن الواقع إذا اشتد الوحي وإن تراخى تراخى الوحي معه)(١) .

فما نزل ابتداء ليس بحاجة إلى ربطه بسبب نزول وفي ذلك رد على من توهم أن آيات القرآن لاتنزل إلا على سبب .

ولقد أورد الواحدي بعض الروايات التى لا ينطبق فحواها ومفهومها مع موضوع الأسباب ، مما يدل على أن الآيات موضوع هذا الروايات من قبيل ما نزل ابتداء دون ارتباط بحدث أو واقعة أو سؤال ، وأمثلة ذلك ما يلي :

قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ . . . ﴾ إلى قوله وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢) .

---

(١) عدنان زرزور ـ مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ص ٩٩ـ ١٠٠ ، دار القلم ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م .

(٢) الآية : ١٩٠ سورة : الأعراف .

قال الواحدي : قال مجاهد : (كان لا يعيش لآدم وإمرأته ولد فقال لهما الشيطان إذا ولد لكما ولد فسمياه عبدالحرث وكان إسم الشيطان قبل ذلك الحرث ففعلا فذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ ﴾(١))(٢) .

نقـول لو افـترضنا صحة هذه الرواية فإن مدلولها لاينسجم ومفهوم الآية الكريمة ، لأنه لو كان المقصود هو الجزء الآخر من الآية من قوله تعالى : فلما أتـاهما صالحاً جعلا له شركاء . . ﴾ كان من الأجدر أن يبين ذلك في موضعه خاصة وانطباق الرواية عليه أولى وأوقع وفي هذا يقول ابن كثير ـ بعد أن جاء بعدد من الروايات في معنى ومضمون هذه الرواية ـ (وهذه الآثار والله أعلم أنها من آثـار أهـل الكتـاب وقد صح الحديث عن رسول الله « ﷺ » أنه قال : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم »(٣) .

وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا وأنه ليس المراد من السياق آدم وحـواء وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال تعالى : ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٤) .

وأرى أن هذه الآية مما نزل ابتداء دون سبب .

ثم أن هذه الآية تعد من المتشابه يقول القاضي عبدالجبار (واعلم أن تقدير الكلام أنه خلق كل نفس منكم من نفس واحدة الذكر والأنثى وجعل منها زوجها من النفس الواحدة ثم ساق الكلام في وصف آدم وحواء وبين أنهما دعوا الله أن يرزقهما ذرية صالحة أو ولداً صالحاً فقال تعالى : ﴿ فلما آتاهما صالحاً ﴾ يعني فلما أجابهما إلى ما طلبا . . . (جعلا له شركاء فيما أتاهما) يعني الولد الذي رزقهما . فإن قال : إذا كانا طلبا منه تعالى الولد الصالح فكيف يجوز أن يقول : « فلما أتاهما صالحاً » ، فبين أنه أجابهما ثم يصف الولد الصالح بأنه أشرك مع الله غيره .

---

(١) الآية : ١٨٩ ـ نفس الموضع .

(٢) الواحدي ص ١٧١ .

(٣) الحديث : أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٨/ ١٧٠ ـ فتح الباری ـ دار الفكر .

(٤) الآية : ١٨٩ سورة : الأعراف .

قيل له/ أنه أراد بقولهما « لئن آتيتنا صالحاً» : صحيحاً قوي الخلقة سليم الأعضاء وذلك لا ينافي أن يكون مشركاً .

فلو ثبت أنهما أرادا الصلاح في الدين لا في الجسم فلا يمتنع أن يأتيهما بالولد الصالح ثم يقع منه من بعد الشرك لأن ذلك لا يتنافي في حالين . .)⁽¹⁾ .

٢ - قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾⁽²⁾ .

قال الواحدي : عن حصين عن زيد بن وهب قال : مررت بالربذة فإذا أنا بأبي ذر فقلت له ما أنزلك منزلك هذا . قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في هذه الآية ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ﴾ فقال معاوية نزلت في أهل الكتاب فقلت نزلت فينا وفيهم ، وكان بيني وبينه كلام في ذلك ، وكتب إلى عثمان يشكو منى ، وكتب إلى عثمان أن أقدم المدينة فقدمتها وكثر الناس على حتى كأنهم لم يروني . . . . الخ القصة ثم قال الواحدي رواه البخاري⁽³⁾ .

قول أبي ذر « إنها لفينا وفيهم » ثم قول معاوية « في أهل الكتاب » يدخل في باب تفسير معنى الآية ولا يرتبط بسبب نزول هذه الآية .

ثم أن السبب المذكور يدل على أن هذه الحادثة وقعت في زمن الخليفة عثمان بن عفان أي بعد اكتمال نزول القرآن وموت الرسول « ﷺ » ولم تأت لنا هذه الرواية بنص صريح فيمن نزلت ولا متى كان ذلك .

وأصل القصة كان بسبب خلاف نشأ حول فيمن نزلت بين أبي ذر ومعاوية وحتى هذا الخلاف لم يحل الإشكال الواقع هذا إذا كانت الآية من المشكل أصلاً .

وعليه نحمل هذه الآية الكريمة على أنها مما نزل ابتداءاً ، وذكر ابن الجوزي لدى تفسير هذه الآية الكريمة أنهم اختلفوا فيمن نزلت لا في سبب النزول على

---

(١) القاضى عبدالجبار ـ متشابه القرآن ـ ١/ ٣١٠، ٣١١ ـ دار التراث ـ القاهرة .

(٢) الآية : ٣٤ سورة: التوبة .

(٣) الواحدي ص ١٨٣ـ ١٨٤ .

ثلاثة أقوال (أحدها أنها عامة في أهل الكتاب والمسلمين ، الثاني : أنها خاصة في أهل الكتاب ، الثالث أنها في المسلمين(١) .

٣ - قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾(٢) .

قال الواحدي : (عن ابن عباس قال : بينما رسول الله « ﷺ » بفناء بيته بمكة جالساً إذ مر به عثمان بن مظعون . . .

وساق قصة طويلة إلى أن قال رسول الله « ﷺ » أتاني رسول الله جبريل عليه السلام ، وسلم آنفاً وأنت جالس ، قال عثمان : فماذا قال لك ، قال لي : أن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذي القربي ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلك تذكرون »(٣) فذاك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمد « ﷺ » وبهذا قال ابن كثير أيضاً(٤) .

هذه الرواية تدل على أن نزول الآية كان سبباً مباشراً في إسلام أو إيمان عثمان بين مظعـون لا العكس ففي هذه الحـالة لم يكن إيمان عثمان سبباً لنزول هذه الآية ، وعليه تعد هذه الآية مما نزل غير مرتبطٍ بحدث .

٤ - في قـوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(٥)

قال الواحدي : عن عمر بن الخطاب رضـي الله عنه يقول كان إذا نزل الوحي على رسول الله « ﷺ » يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل فمكثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وأرض عنا ثم قال : أنزلت علينا عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ « قد أفلح المؤمنون . . إلى عشر آيات »)(٦) .

فهذه الآية لم تنزل بسبب ، بل نزلت ابتداءً دون سبب وما ذكر هنا من رواية عمر لهو شاهد على ذلك لأن ما ذكر عمر يدل على أنه كان شاهداً نزولها دون أن

---

(١) ابن الجوزي ٣/٤٢٨ ، وص ٤٢٩ .

(٢) الآية : ٩٠ سورة : النحل .

(٣) الواحدي ص ٢١١ .

(٤) أنظر تفسير ابن كثير ٢/٥٨٣ .

(٥) الآية : ١ سورة : المؤمنون .

(٦) الواحدي ، أسباب النزول ص ٢٣٤ .

يحدد سبباً أو واقعة أو سؤال وليس وجود أو حديث عمر مما يحملنا على إدراج هذه الرواية تحت مضمون أسباب النزول ، ولا الآية مما نزل بسبب .

٥ - في سورة قريش :

قال الواحدي نزلت في قريش وذكر منة الله عليهم ثم ساق الحديث عن أم هانيء بنت أبي طالب قالت : قال النبي « ﷺ » إن الله فضل قريشاً بسبع خصال لم يعطها قبلهم أحد ولا يعطيها أحداً بعدهم ، أن الخلافة فيهم والحجابة فيهم وإن السقاية فيهم وأن النبوة فيهم ونصروا على الفيل وعبدوا الله سبع سنين . لم يعبده احد غيرهم ، ونزلت فيهم سورة لم يذكر فيها أحد غيرهم ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾(١) .

كلام الرسول « ﷺ » يدل دلالة واضحة على أنه قال هذا الكلام بعد وليس قبل نزول السورة الكريمة ، بعد أن نزلت ابتداء في فضل قريش .

وقد ذكر ابن كثير رواية في ذات المعني بلفظ مختلف ، في تفسير هذه السورة ولم يحمله على أنه سبب في نزول السورة وإنما ذكر في معرض التفسير وقال (حديث غريب في فضلها)(٢) وذكر السيوطي هذه الرواية أيضاً وفي سبب نزول السورة ؟ .

٦ - في سورة الزلزلة :

وما ذكرناه في سورة قريش ينطبق على سورة الزلزلة ، إذا قال الواحدي (نزلت إذا زلزلت الأرض زلزالها وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعد - فبكى فقال رسول الله « ﷺ » ما يبكيك يا أبا بكر قال أبكاني هذه السورة ، فقال رسول الله « ﷺ » لو أنكم لا تخطئون ولا تذنبون لخلق الله أمة من بعدكم يخطئون ويذنبون فيغفر لهم » .

فليس ما يدل على أن بكاء أبي بكر كان سبباً في نزول السورة بل أن السورة

---

(١) الآية : ١ سورة قريش .

(٢) ابن كثير . ٥٥٣/٤ .

أبكت أبا بكر بعد أن نزلت ثم سمعها أبوبكر ـ وهذا لا يدخل في مضمون أسباب النزول .

٢ - التاريخ : (كالقصص وأخبار السابقين) :

ولا يخل في مضمون أسباب النزول ما كان من قصص السابقين وأخبارهم كقصة موسى ويوسف وغيرهم إنماهي من قبيل حكاية إخبارهم للرسول « ﷺ » وللمؤمنين أو حتى للمشركين ، وذلك لأخذ العظة والعبرة أو تصبيراً وتسلية للرسول « ﷺ » ذلك فمثل هذه الأخبار السالفة والسابقة على مجيء الإسلام وتنزل القرآن لا تعد من أسباب النزول إلا إذا وردت بصيغة السؤال يوجه إلى النبي « ﷺ » مثل ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ﴾(١) .

كما أن وقائع السيرة والجماعة الإسلامية كذلك من باب التسجيل لما وقع وفي هذا الباب أيضاً جاء الواحدي بروايات عديدة أدخلها تحت مفهوم أسباب النزول فأوهم بها البعض إلى درجة الإعتماد والتصديق .

١ - قال تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ ﴾(٢) .

قال الواحدي (قال ابن عباس ومقاتل نزلت في السبعين الذين اختارهم موسى ليذهبوا معه إلى الله تعالى ثم رجعوا إلى قومهم فأما الصادقون فأدوا ما سمعوا . وقالت طائفة منهم : سمعنا الله من لفظ كلامه ، يقول إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا أو إن شئتم فلا تفعلوا ولا بأس .

وعند أكثر المفسرين نزلت الآية في الذين غيروا آية الرجم وصفة محمد « ﷺ »(٣) .

---

(١) الآية : ٨٣ سورة: الكهف .

(٢) الآية : ٧٥ سورة : البقرة .

(٣) الواحدي ص ١٧-١٨ أسباب النزول .

إن هذه الرواية الماثلة بين أيدينا لا تصلح أن تكون سبباً لنزول الآية ، إذ الواقعة متقدمة بزمن طويل والآية متأخرة فهي من قبيل القصص وأخبار السابقين فكيف تذكر ويقال أنها سبب لنزول الآية ؟ .

وهذا وهم بيّن وقع فيه الواحدي وأوقع فيه غيره ، فهذه الرواية إن جاءت على سبيل التفسير فلا بأس .

كما أن الطبري قد أورد هذه الرواية في تفسيره كتفسير مساعد على فهم الآية ولم يقل أنها سبب لها ، يقول : (أنها نزلت في اليهود إيذاناً منه تعالى عباده المؤمنين وقطع أطماعهم من إيمان بقايا نسلهم بما أتاهم محمد من الحق والنور والهدى فقال لهم كيف تطمعون في تصديق هؤلاء اليهود وإنما تخبرونهم بالذي تخبرونهم من الأنباء عن الله عز وجل عن غيب لم يشاهدوه ولم يعاينوه وقد كان بعضهم يسمع من كلام الله وأمره ونهيه ويحرفه ويجحده فهؤلاء الذين بين أظهركم من بقايا نسلهم أحرى أن يجحدوا ما أتيتموهم به من الحق وهم لا يسمعونه من الله وإنما يسمعونه منكم(١) .

المقصود بهؤلاء هم السبعون الذين ذكرهم الواحدي في روايته .

ونحن نرى أنه من غير المعقول حمل الآية الكريمة على هذه الرواية لأن دلالة الآية الكريمة واضحة حتى ولو لم تعرف أو تذكر هذه الرواية .

٢ - قال تعالى : « ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ . . .﴾ الآية(٢) .

قال الواحدي بسنده عن ابن عباس قال : « ان الشياطين كانوا يسترقون السمع مع السماء فيجيء أحدهم بكلمة حق فإذا جرب الناس ، فاطلع على ذلك سلميان فأخذها فدفنها تحت الكرسى فلما مات سليمان قام شيطان الطريق فقال : ألا أدلكم على كنز سليمان المنيع الذي لا كنز مثله ، قالوا : نعم . قال : تحت الكرسى فأخرجوه فقالوا هذا سحر سليمان ، سحر به الأمم ، فأنزل الله عذر سليمان ، ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان . . . . » .

---

(١) الطبري ٢٩١/١ . جامع البيان .

(٢) الآية : ١٠٢ سورة: البقرة .

كما ذكر الواحدي أيضاً في هذا الشأن ثلاث روايات أخرى بأسانيد مختلفة تدور في نفس الفلك ، تنتهي إلى أن براءة سليمان مما نسب إليه من السحر جاءت في هذه الآية .

هذه الروايات من القصص الإسرائيلي الذي تسرب إلى التفسير .

والقصة المذكورة على ما رواها الواحدي لم تأت بسبب واقعة أو سؤال وجه ؟

بل أن جميع روايات الواحدي تشير إلى أن تفسير الآية على هذا النحو لم يكن بين يدي الرسول « ﷺ » ولا تحت إشرافه ولكن إذا التفتنا إلى ما كتبه بعض المفسرين فقد نجد ما يقوي روايات الواحدي ولكن لا يرفعها إلى مضمون أسباب النزول .

فإبن الجوزي يرى (أن اليهود كانوا لا يسألون النبي عن شيء من التوراة إلا أجابهم فسألوه عن السحر وخاصموه به ، فنزلت هذه الآية .

ثم أنه لما ذكر سليمان في القرآن قالت يهود المدينة ألا تعجبون لمحمد يزعم أن ابن داود كان نبياً ، والله ما كان إلا ساحراً ، فنزلت هذه الآية) قال قاله ابن اسحاق[1] .

وروي ابن كثير قال (لما بعث النبي « ﷺ » وذكر داود وسليمان فقالت اليهود انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل يذكر سليمان مع الأنبياء إنما كان ساحراً يركب الريح .

فمثل هذا يمكن أن يحمل على أنه سبب للنزول لأن هناك حادثاً استلزم التنبيه والتصحيح وبما أن روايات الواحدي كما هي عليه لا تقودنا إلى هذه النتيجة ، فمن حقنا أن نلقي بها جانباً ثم أن هذه الآية من المتشابه الذي أوضح القاضي عبدالجبار إذ يرى في هذه الآية أنه (ليس في الظاهر أكثر من أن الشياطين يعلمون ما أنزل الله تعالى على الملكين من أنواع السحر ، وقد علمنا أنه تعالى قد ينزل على الملك وعلى أنبيائه تعليم الخير والشر فالخير ينزله عليه ليفعل ، والشر

---

(١) ابن الجوزي ١/ ١٢٠ .

ليعرف ، فيجتنب ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ ﴾(١) .

يعني بالفتنة زيادة التكليف أو مشقته ، فلا تكفر فيعلمان السحر والكفر ويضيفان إلى ذلك النهي عن التمسك به، ولا يجب إذا تعلم منهما الغير ما يفرق بين المرء وزوجه أن يكون ذلك بمرادهما ومشيئتهما وقوله «بإذن الله» لا يدل على أن المراد هو الأمر والإرادة ، لأن الإذن كما يراد به الأمر والإباحة فقد يراد به إعلام ومن ذلك يسمى الآذان آذاناً(٢) .

٣ - قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾(٣)

قال الواحدي (الآية نزلت في ططلوس الرومي وأصحابه من النصارى وذلك أنهم غزو بنى إسرائيل فقتلوا مقاتليهم وسبوا ذراريهم وحرقوا التوراة وخربوا بيت المقدس وقذفوا فيه الجيف ، وهذا قول ابن عباس في رواية الكلبي .

وقال قتادة : هو بختنصر وأصحابه غزو اليهود وخربوا بيت المقدس وأعانتهم على ذلك النصاري من أهل الروم وقال ابن عباس في رواية عطاء نزلت في مشركي أهل مكة ومنعهم المسلمين من ذكر الله تعالى في المسجد الحرام)(٤) .

وإلى هذا الرأي أيضاً مال الطبري وأكده في تفسيره(٥) .

هذه الرواية على هذا الوجه لا تعد من أسباب النزول لأن المقصود منها حكاية لحادث وقع قبل الإسلام وقبل أن يكون هناك تنزيل للقرآن على النبي « ﷺ » .

وقد حكى ابن عباس هذه القصة ولكنه لم يقصد بها أن الآية نزلت فيها إنما كان قصده التفسير ، بدليل روايته الثانية التي تبين أنها نزلت في مشركي مكة ،

---

(١) الآية : ١٠٢ سورة: البقرة .

(٢) القاضى عبدالجبار ، مرجع سابق، ١/٩٩، ١٠٠ .

(٣) الآية : ١١٤ سورة: البقرة .

(٤) الواحدي ص ٢٥ .

(٥) تفسير الطبري، ١/٤٩٨ .

فهذا من باب تأويل الآيات بسرد قصص السابقين .

وعزا ابن كثير هذه الروايات إلى أنها مما جاء في تفسير الآية ولم يشر إلى أنها من أسباب النزول(١) . يقول بعض الباحثين المعاصرين (. . . . يقرأ الواحدي هذه الآية ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾(٢) فلا يستنتج منها أنه وعيد عام مطلق للذين يستهينون بالمعابد ويعطلون الشعائر وينتهكون الحرمات ، ويسعون في خراب بيوت الله ، فيذكر اتحاد النصاري مع بختنصر على تخريب بيت المقدس مع أن حادثة بختنصر هذا وقعت قبل ميلاد المسيح بست مائة وثلاث وثلاثين سنة .

ويغتفر للواحدي هذا الخطأ لأمرين أما أحدهما فهو أنه لم يك معدوداً بين المؤرخين ، وأما الآخر فهو أنه لم يختر رأي قتادة بل اكتفى بذكره من غير تعليق عليه كأنه لا يرى فيه بأساً(٣) . وأنا أقول أن إيراده لهذه الروايات وأمثالها في كتاب يحمل اسم أسباب النزول لهو دليل واضح على أنه ارتضى أن يكون ذلك بكل ما فيه من تجاوزات من أسباب النزول وحتى ولو لم يعلق وهو غالباً لا يعلق على رواياته ، بل يذكرها هذكا وكأنها قضايا مسلم بها .

ويرى ابن عاشور (ان مثل هذه الروايات لا ينبغى التعويل عليها لأنها لا تظهر مناسبة لذكرها فلا ينبغى بناء التفسير عليها والمعتمد في ذلك هو رواية ابن عباس عن عطاء المذكورة فالآية نازلة في مشركي العرب)(٤) .

٤ - قال تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾(٥) .

قال الواحدي : (قال ابن مسعود نزلت في بلعم بن باعوراء رجل من بني

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/١٥٦ .

(٢) الآية ١١٤ سورة : البقرة .

(٣) د . صبحى الصالح ، مباحث في علوم القرآن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة ١٧ ، ١٩٩٠- ص ١٣٩ .

(٤) التحرير والتنوير ١/٦٧٨- ٦٧٩ .

(٥) الآية: ١٧٥ سورة: الأعراف .

إسرائيل وقال الوالبي هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم وكان يعلم إسم الله الأعظم فلما نزل بهم موسى ـ عليه السلام ـ أتاه بنو عمه وقومه وقالوا أن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة ، وأنه إن يظهر علينا يهلكنا .

فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه قال إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتى فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه مما كان عليه ـ فذلك قوله : فانسلخ منها وعن عبدالله بن عمرو وزيد بن أسلم نزلت في أمية بن أبي الصلت الثقفي وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك الوقت ورجا أن يكون هو ذلك الرسول فلما أرسل محمد « ﷺ » حسده وكفر به .

وروى عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيها وكانت له إمرأة يقال لها البسوس وكان له منها ولد وكانت محبة له فقالت إجعل لي منها دعوة واحدة ، قال لك واحدة فماذا تأمرين قالت ادع الله أن يجعلني أجمل إمرأة في بني إسرائيل فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئاً آخر ، فدعا الله عليها أن يجعلها كلبة نباحة فذهبت فيها دعوتان وجاء بنوها فقالوا : ليس لنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة نباحة يعيرنا بها الناس فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها فدعا الله فعادت كما كانت ، وذهبت الدعوات الثلاث وهي « البسوس »(١) وبها ضرب المثل في الشؤم فيقال : أشأم من البسوس ونستنبط من نص الواحدي هذا أن الروايتين الأولى والأخيرة هما من قصص أهل الكتاب ، والتي لا يعتد بها في مسألة سبب نزول هذه الآية على وجه التحقيق ، حتى وإن صدقنا هذه الروايات ، لأنها تنزلت بعدا ستدال الستار على تلك القصص بقرون وأجيال .

ثم أن الطبرى ذكر الروايتين الأولى والثانية ولم يعلق عليهما(٢) .

الرواية الثانية وإن كانت أكثر معقولية في تعلقها بسبب النزول إلا أننا لا نجد ما نستند إليه لإثبات ذلك حيث لم تذكر واقعة مؤكدة أو سؤال سئل وعليه

---

(١) الواحدي ص ١٦٩– ١٧٠ .

(٢) الطبري ٨١/١ : ٨٣.

فإن روايات الواحدي الثلاث لا يصلح أي منها لأن يكون سبباً من أسباب النزول .

« في سورة الفيل »

قال الواحدي نزلت في قصة أصحاب الفيل وقصدهم تخريب الكعبة وما فعل الله تعالى بهم من إهلاكهم وصرفهم عن البيت وهي معروفة(١) .

وقد علق السيوطي على هذه الرواية بقوله : (والذي يتحرر في سبب النزول أنه مانزلت الآية أيام وقوعه ليخرج ما ذكر الواحدي في تفسير سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة فأن ذلك من أسباب النزول في شيء(٢) .

وهذا قول غريب عن الواحدي ، اذ ذكر بصريح العبارة أنها نزلت في أصحاب الفيل ، مع أن قصة الفيل حدثت قبل مولد الرسول « ﷺ » بل وحتى قبل تنزل القرآن عليه (ومن الإفراط في علم أسباب النزول أن نتوسع فيه ونجعل منه ما هو من قبيل الإخبار عن الأحوال الماضية والوقائع الغابرة(٣) .

ثم أن قوله تعالى في بداية سورة الفيل ﴿ آلم تر ﴾ (أي تعلم علماً هو في تحققه كالحاضر المحسوس بالبصر وذلك لأنه « ﷺ » وإن لم يشهد تلك الواقعة فأنه شاهد آثارها وسمع بالتواتر ، مع إعلام الله له أخبارها(٤) .

---

(١) الواحدي ، ص ٣٤٢ .

(٢) انظر الاتقان للسيوطي ١/ ٣١ .

(٣) مباحث في علوم القرآن ، مناع القطان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت الطبعة الرابعة ، ١٩٧٦ - ص ٧٧ - ٧٨ .

(٤) الإمام برهان الدين البقاعي ، نظم الدور في تناسب الآيات والسور ، الطبعة الأولى ١٩٨٤- ٢٢/ ٢٥٠ .

٣ - التفسير :

ومثل هذا لا يعتبر من « أسباب النزول » حتى وإن صحت أحاديثه ومنه .

١ - لدي قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾(١) .

ذكر الواحدي بسنده قال كل شيء نزل فيه يا أيها الناس فهو مكي « ويا أيها الذين آمنوا خطاب أهل المدينة فقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا خطاب أهل المدينة فقوله : يا أيها الناس اعبدوا ربكم خطاب لمشركي مكة إلى قوله : ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾(٢) وهذه الآية نازلة في المؤمنين ، وذلك أن الله تعالى لما ذكر جزاء الكافرين بقوله ﴿ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾(٣) ذكر جزاء المؤمنين(٤) .

فهذا في اعتقادي لا يعد سبب نزول لهذه الآية على وجه الخصوص وإنما هو عام في كل آية جاء فيها ذكر « يا أيها الناس » وما كان ذلك إلا تفسيراً من الرواة ، إذ (أن المقصود من قوله يا أيها الناس الإقبال على موعظة نبذ الشرك وذلك هو غالب إصطلاح القرآن في الخطاب « بيا أيها الناس »(٥) .

٢ - في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴾(٦) :

قال الواحدي (نزلت في اليهود حيث قالوا عزيز ابن الله وفي نصاري نجران حيث قالوا : المسيح ابن الله وفي مشركي العرب قالوا : الملائكة بنات الله(٧) .

وفي هذا نقول : من الممكن أن يكون قصد الشارح أن هذه الآية مما يصدق عليه ذلك ، وإلا فإن قول اليهود والمسيحيين سابق لنزول الآية فهي من قبيل الشرح والتفسير بضرب المثل بأقوال اليهود والنصارى ، وليست من أسباب النزول ، قال الطاهر ابن عاشور : (اجتمع على هذه الضلالة الفرق الثلاث

---

(١) الآية : ٢١ سورة : البقرة .

(٢) الآية : ٢٥ سورة : البقرة .

(٣) الآية : ٢٤ سورة : البقرة .

(٤) الواحدي ، ص - ٢٦ .

(٥) التحرير والتنوير ، مرجع سابق ١/ ٣٢٤ .

(٦) الآية ١١٦ ، سورة البقرة .

(٧) الواحدي ، ص ٢٦ .

فقالت . . . اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، وقال المشركون الملائكة بنات الله فتكون هذه الآية رجوعاً إلى جمعهم(١) .

وفي قوله تعالى : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾(٢) .

قال الواحدي : قال ابن عباس « إن النصارى كان إذا ولد لأحدهم ولد فأتى عليه سبعة أيام صبغوه في ماء لهم يقال له المعمودي ليطهروه بذلك ، ويقولون هذا طهور مكان الختان ، فإذا فعلوا ذلك صار نصرانيا »(٣) .

وروى ابن كثير عن ابن عباس أيضاً في هذه الآية (ان نبي الله « ﷺ » قال أن بني إسرائيل قالوا يارسول الله هل يصبغ ربك فقال اتقوا الله فناداه ربه ياموسى سألوك هل يصبغ ربك ؟ فقل نعم أنا أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود ، والألوان كلها من صبغي ، وأنزل الله علي نبيه « ﷺ » ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾(٤) .

وعلى أي حال وعلى فرض صحة الروايتين فهما لا يدخلان تحت مفهوم أسباب النزول ، ولا تحت مضمون التفسير ، ذلك أن مسألة التعميد كان سنة ماضية لدى النصاري قبل مجيء الإسلام وقبل نزول القرآن خاصة وأن هاتين الآيتين لم تتضمنا سؤالاً وجه إلى الرسول مثلاً أو وقعت حادثة استدعت أن يقول الرسول شيئاً، وصبغة الله رد على اليهود والنصارى معا . أما اليهود فلأن الصبغة نشأت فيهم وأما النصارى فلأنها سنة مستمرة فيهم ، ولما كانت المعمودية مشروعة لهم لغلبة تأثير المحسوسات على عقائدهم ، رد عليهم بأن صبغة الإسلام الاعتقاد والعمل المشار إليهما بقوله ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾(٥) إلى قوله ﴿ وَنَحْنُ

---

(١) التحرير والنوير ١/ ٦٨٤ .

(٢) الآية : ١٣٨ سورة: البقرة .

(٣) الواحدي ، ص ٢٨ .

(٤) الحافظ عماد الدين اسماعيل ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم، ١/١٨٨ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٦٩ م .

(٥) الآية : ١٣٦ سورة : البقرة.

لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾(١) . أي أن كان إيمانكم حاصلا بصبغة القسيس فإيماننا بصبغ الله وتلوينه أي تكييفه الإيمان في الفطرة مع إرشادة إليه ، فإطلاق الصبغة على الإيمان استعارة علاقتها المشابهة(٢) .

وقال الطبري : يعنى تعالى ذكره بالصبغة صبغة الإسلام إذ قالوا لنبيه محمد « ﷺ » وأصحابه المؤمنين كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل لهم يا محمد أيها اليهود والنصارى بل اتبعوا ملة إبراهيم ـ صبغة الله ـ التي هي أحسن الصبغ(٣) .

٤ - قال تعالى : ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾(٤) .

قال الواحدي : قال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي : لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ، استأذن ملك الموت ربه أن يأتي إبراهيم فيبشره بذلك فأتاه فقال جئتك أبشرك بأن الله اتخذك خليلاً ، فحمد الله عز وجل وقال : ما علامة ذلك ، قال : أن يجيب الله دعاءك وتحيي الموتى بسؤالك ، ثم انطلق وذهب فقال إبراهيم ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ ﴾ بعلمي أنك تجيبني إذا دعوتك وتعطيني إذا سألتك أنك اتخذتني خليلاً(٥) .

نقول إذا كانت هذه القصة حقيقة وقعت فهي لم تقع أيام الرسول « ﷺ » ولم تحدث عند نزول القرآن وهي في مجال الشرح والتفسير وليست من أسباب النزول ، ولو كان لابد أن تذكر فإن مكانها لدى قوله ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ وليس هنا .

٥ - وفي قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾(٦) .

---

(١) الآية : ١٣٦ سورة : البقرة .

(٢) التحرير والتنوير ١ / ٧٤٤ .

(٣) الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، جامع البيان في تفسير القرآن ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ١/٤٤٤ .

(٤) الآية : ٢٦٠ سورة البقرة .

(٥) الواحدي ص ٦٠ ، ٦١ .

(٦) الآية : ٣١ سورة الأعراف .

قال الواحدي : عن ابن عباس بسنده قال : كان ناس من الأعراب يطوفون بالبيت عراة حتى إن كانت المرأة لتطوف بالبيت عريانة . . . وساق القصة فأنزل الله (يابني آدم)(١) هذه الرواية ذكرت هنا على ما أظن في مجال التفسير لمضمون معنى الآية الكريمة وليس في ثناياها ما يحملنا على الجزم بأنها من أسباب النزول ، إذ لا سؤال سئل للرسول ولا حادثة وقعت استوجبت ذكر ما ذكر ، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه ما جاء في تفسير ابن كثير لدى تفسير هذه الآية قال : (كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة والزينة اللباس وهو ما يواري السؤاة وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع فأمروا أن يخذوا زينتهم عند كل مسجد وهكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي وسعيد ابن جبير وقتادة والسدي والضحاك ومالك عن الزهري وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة . . .)(٢) ولم يقل ابن كثير أنها جاءت كسبب نزول إنما سبقت القصة في استحضار ما كان يحصل من البعض .

٦ - قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ﴾(٣) .

قال الواحدي : عن أبي هريرة في هذه الآية : قال نزلت في رفع الأصوات وهم خلف الرسول « ﷺ » في الصلاة وقال قتادة : كانوا يتكلمون في صلاتهم أول ما فرضت .

وقال الزهري : نزلت في فتى من الأنصار ، كان رسول الله « ﷺ » كلما قرأ شيئاً قرأ هو فنزلت وقال ابن عباس أن رسول الله « ﷺ » قرأ في الصلاة المكتوبة وقرأ أصحابه وراءه رافعين أصواتهم فخلطوا عليه فنزلت(٤) وإلى هذا ذهب ابن كثير أيضاً(٥) .

---

(١) الواحدي ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ، مرجع سابق ٢ / ٢١٠ .

(٣) الآية ٢٠٤ سورة : الأعراف .

(٤) الواحدي ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٢٨٠ .

ونحن لا نشكك في صحة هذه الروايات على اختلافها واختلاف رواتها ، ولكن نرى أن هذه الآية جاءت من باب التأدب في السلوك حيال قراءة القرآن أو الصلاة بوجه عام لا بسبب خاص بل أن كثرة الروايات وتعددها يزيد من إيماننا بأنها كانت تفسيرات اجتهادية من قبل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في فهم الآية وشرحها . وفي ذلك يقول السيوطي : (كثيراً ما يذكر المفسرون لنزول الآية أسباباً متعددة وطريق الاعتماد في ذلك أن ينظر إلى العبارة الواقعة فإن عين أحدهم بقوله نزلت في كذا والآخر نزلت في كذا وذكر أمراً آخر . . . فهذا يراد به التفسير لا ذكر سبب النزول(١) . أي أن هذا من قبيل الرأي لا من باب (النص) على سبب النزول .

وقد ذكر الطبرى لدى تفسير هذه الآية نحواً من عشرين رواية أو أكثر ، بما فيها روايات الواحدي ، اختلفت في الألفاظ واتحدت في أن هذه الآية نزلت في الصلاة ، يقول : (اختلف أهل التأويل في الحال التي أمر الله بالاستماع لقاريء القرآن إذا قرأ والإنصات له فقال بعضهم : ذلك حال كون المصلي في الصلاة خلف إمام يأتم به ، وهو يسمع قراءة الإمام عليه أن يسمع لقراءته ، وقالوا في ذلك أنزلت هذه الآية(٢) .

فها نحن نجد أن الطبري أيضاً لا يجزم بنزول هذه الآية بسبب واحد من هذه الروايات . وذلك لأن : (هؤلاء قصروا أمر الاستماع على قراءة خاصة دل عليها سبب النزول عندهم على نحو يقرب من تخصيص العام بخصوص سببه ، عند من يخصص به ، وهذا تأويل ضعيف لأن نزول الآية على هذا السبب لم يصح ولا هو مما يساعد عليه نظم الآية التي معها وما قالوه في ذلك إنما هو تفسير وتأويل وليس فيه شيء مأثور عن النبي « ﷺ »(٣) .

---

(١) الاتقان للسيوطي ، مرجع سابق ١/ ٣١ .

(٢) تفسير الطبري مجلد جزء ٥/٧/١١١ .

(٣) التحرير والتنوير ٩/ ٢٤٠ .

٧ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾(١) .

قال الواحدي : دون أن يعزوها إلى أحد (نزلت في العلماء والقراء من أهل الكتاب كانوا يأخذون الرشا من سفلتهم وهي المآكل التي كانوا يصيبونها من عوامهم(٢) فهو يشير إلى موضوع الآية لا إلى سبب نزولها ولاشك أن هذا التعليق الوارد إنما هو تعليق الواحدي نفسه لأنه لم يذكر سنداً لهذه الرواية أو نسبة لأحد من الصحابة أو التابعين مما يدعو إلى الإستغراب والتساؤل أيضاً ، إذ ليس لدينا ما ندفع به تصرف الواحدي هذا ، إلا أن نحمل هذه الرواية على أنها من تفسير الواحدي نفسه لهذه الآية لأمر قد يكون حصل بالفعل من أمثال هؤلاء المذكورين على لسان الواحدي ولكن دون تعلق لفعلهم بسبب نزول هذه الآية .

أو أن الواحدي نقل هذه الرواية عن الطبري الذي ذكر عند تفسير هذه الآية (أن كثيرا من العلماء والقراء من بني إسرائيل من اليهود والنصارى ليأكلون أموال الناس بالباطل يقول : يأخذون الرشا في أحكامهم ويحرفون كتاب الله ويكتبون بأيديهم كتبا ثم يقولون هذه عند الله ويأخذون بها ثمنا قليلا من سفلتهم ويمنعون من أراد الدخول في الإسلام)(٣) .

ولم يذكر الطبري لهذه الآية سببا في النزول ولم يحمل هذه الرواية على الآية كسبب مع أنه من المفسرين الذين اهتموا بأسباب النزول .

٨ - قال تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾(٤) .

ذكر الواحدي بسنده عن أبي رافع مولى رسول الله « ﷺ »، (أن ضيفا نزل برسول الله « ﷺ »، فدعاني فأرسلني إلى رجل من اليهود يبيع طعاماً ، يقول لك

---

(١) الآية : ٢٤ سورة: التوبة.

(٢) الواحدي ، ص

(٣) الطبري ٦/١٠/٨٣.

(٤) الآية: ١٣١ سورة: طه.

محمد رسول الله « ﷺ » ، نزل بنا ضيف ولم يلق عندما بعض الذي نصلحه فبعني كذا وكذا من الدقيق أو سلفني إلى هلال رجب ، فقال اليهودي لا أبيعه ولا أسلفه إلا برهن قال : فرجعت إليه فأخبرته قال : والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض ولو أسلفني أو باعني لأديت إليه ، إذهب بدرعي ونزلت هذه الآية تعزية له عن الدنيا)[1] وبه قال الطبري[2] . والسيوطي[3] .

لكن فحوى القصة لا يتفق ومفهوم الآية فلم يكن رسول الله « ﷺ » ليطمع يوما في ما عند اليهودي أو غيره ولم يكن ليحزن على ما فاته من الدنيا حتي تكون هذه الآية تعزية له على متاع الدنيا .

ومما جاء في تفسير هذه الآية (. . . نهيه عن الاعجاب بما ينعم به من تنعم من المشركين بأموال وبنين في حين كفرهم . . . ومد العينين مستعمل في إطالة النظر للتعجيب لا للاعجاب ، شبه ذلك بمد اليد لتناول شيء مشتهى . . .)[4] .

قال القرطبي : (قال بعض الناس سبب نزول هذه الآية) .

مارواه أبو رافع وذكر الرواية السابقة . . . ثم عقب بقوله : قال ابن عطية وهذا لا يكون سببا لأن السورة مكية والقصة المذكورة مدنية في آخر عمر النبي « ﷺ » لأنه مات ودرعه مرهونة عند يهودي بهذه القصة التي ذكرت ، وإنما الظاهر أن الآية متناسقة مع ما قبلها ، وذلك أن الله تعالى وبخهم على ترك الاعتبار بالأمم السالفة ثم توعدهم بالعذاب المؤجل ، ثم أمر نبيه بالاحتقار لشأنهم[5] ، وقد يكون هذا التعليق أبلغ في رد الاشتباه في تعلق سبب نزول الآية بالقصة المذكورة ، ثم أن فحوى النص الذي أورده الواحدي في هذه الرواية بحاجة إلى

---

(١) الواحدي، أسباب النزول، ص ٢٢٩ .

(٢) الطبرى، ١٦١/١٦/٧ .

(٣) السيوطي، أسباب النزول ص ١٨٠ .

(٤) التحرير والتنوير ٣٤٠/١٦ .

(٥) أبو عبدالله أحمد بن محمد الأنصارى القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة ـ ١٩٦٧ - ٢٦٢/١١ ٢٦٣ .

توقف أو مراجعة ، ذلك أن قول القائل : بعني ، يعني أنه يملك المال في مقابل البضاعة التي يطلب ، أما إذا قال سلفني فهنا لا مال ، وإنما طلب شيء إلى أجل ، أما أن يقول بعني أو سلفني فلا ينتظم ، ثم أن فحوى كلام رسول الله « ﷺ » أنه طلب السلف لا البيع بدليل قوله « والله إنى لأمين في السماء أمين في الأرض » فلو كان بيعا كما طلب البائع الرهن إذ لا وجه لطلب الرهن في المأكل أو المشرب مثلا ، (باعتبار استهلاكهما) .

إلا أن تكون عبارة (بعني أو سلفني) شك من الراوي ؟ .

٩ - قوله تعالى : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾(١) .

نقل الواحدي في هذا روايات ثلاث .

الأولى : عن قيس بن عبادة عن أبي ذر يقول : أقسم بالله لنزلت « هذان خصمان اختصموا في ربهم » في هؤلاء الستة - حمزة وعبيدة وعلي بن أبي طالب ، وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة(٣) .

الرواية الثانية : عن قيس عن علي قال : فينا نزلت هذه الآية وفي مبارزتنا يوم بدر هذان خصمان اختصموا . . . إلى قوله « الحريق » .

الثالثة : عن إبن عباس قال : هم أهل الكتاب قالوا للمؤمنين نحن أولى بالله منكم وأقدم منكم كتابا ، ونبينا قبل نبيكم ، وقال المؤمنون نحن أحق بالله ، آمنا بمحمد - عليه الصلاة والسلام - وآمنا بنبيكم وبما أنزل من كتاب ، فأنتم تعرفون نبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا وكانت هذه خصومتهم فأنزل الله فيهم هذه الآية وتعليل كل فريق نزول الآية بسبب مغاير كل ذلك يحملنا على الاعتقاد بعدم اختصاص أي من هذه الأسباب بهذه الآية ، اللهم إذا كان القصد هو :

---

(١) الآية : ١٩ سورة: الحج .

(٢) أخرجه البخارى في كتاب التفسير - باب « هذان خصمان » الإمام أبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري - فتح الباري بشرح ضحيح البخارى - الإمام الحافظ بن حجر - دار الفكر - تحقيق ابن باز - محمد فؤاد عبدالباقي - ٤٤٣/٨ .

التوضيح والتفسير ليس إلا ، على الرغم من وجود هذه الرواية في صحيح البخاري ويبدو أن الآية حملت على الرواية . هذا أولاً .

ثانيا : يسرد الإمام الطبري طائفة من الروايات بما فيها الرواية التي ينقلها عنه الواحدي المتعلقة بموضوع سبب هذه الآية ، ويعلق عليها بقوله : (وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب وأشبهها بتأويل الآية قول من قال عني بالخصمين جميع الكفار من أي أصناف الكفر كانوا ، وجميع المؤمنين ، وإنما قلت ذلك أولى بالصواب لأنه تعالى ذكر قبل ذلك صنفين من خلقه أحدهما أهل طاعة له بالسجود والآخر أهل معصية له . . . ثم أتبع ذلك صفة الصنفين كليهما وما هو فاعل بهما فقال : ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ ﴾(١)(٢) .

ثالثا : لنا في كلام ابن عاشور مستند في حملة وتوجيهه للآية محملا آخر ، حيث يرى (ان اختصام فريقي المؤمنين وغيرهم معلوم عند السامعين . . . فالأخبار عن الفريقين بأنهما خصمان مسوق لغير إفادة الخبر بل تمهيدا للتفصيل في قوله ، فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار)(٣) . وهكذا نستطيع أن نفهم من هذا النص أن المراد من هذه الآية ما يعم جميع المؤمنين وجميع مخالفيهم في الدين . . . والأظهر أن أبا ذر عني بنزول الآية في هؤلاء النفر الستة وهم أبرز مثال وأشهر فرد في هذا العموم ، فعبر بالنزول وهو يريد أنهم ممن يقصد من معنى الآية ، ومثل هذا كثير في كلام المتقدمين ، والاختصام على الوجه الأول حقيقي وعلى الوجه الثاني أطلق الاختصام على المبارزة مجازا مرسلا لأن الاختصام في الدين هو سبب تلك المبارزة(٤) .

---

(١) الآية : ١٩ سورة الحج .

(٢) تفسير الطبرى ٧/١٧/١٠٠ .

(٣) الآية : ١٩ سورة الحج .

(٤) التحرير والتنوير، ١٧/٢٢٨ - ٢٢٩ .

١٠ - ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾(١).

قال الواحدي (قال ابن عباس : كان الرجل يسلم فإذا اراد أن يهاجر منعه أهله وولده وقالوا ننشدك الله أن تذهب وتدع أهلك وعشيرتك ونصير إلى المدينة بلا أهل ولا مال فمنهم من يرق لهم ويقيم ولا يهاجر)(٢).

الآية المذكورة موجهة إلى غير معين لأنها لم ترد في حادثة معينة أو أشخاص بعينهم (فردا أو جماعة) وصيغة العموم التي جاءت بها أشعرت أنها من باب التفسير فحسب . خاصة أن ابن عباس لم يقل نزلت في كذا أو فنزلت مثلا .

وقد أورد الطبري (أخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال : نزلت سورة التغابن كلها إلا هؤلاء الآيات ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ ﴾(٣) نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد ، فكان إذا أراد الغزو بكوا إليه ووقفوه ، فقالوا : إلى من تدعنا ، فيرق ويقيم ، فنزلت هذه الآية(٤) وذكر السيوطي أيضاً هذه الرواية(٥). فإذا حملنا رواية الطبري والسيوطي على رواية الواحدي فمن الممكن أن يكون هذا معتضد يقويها ويرفعها إلى مرتبة أسباب النزول وإلا فصورتها تلك ليست إلا من باب التفسير على نحو عام ، ولا ينطبق عليه مفهوم أسباب النزول .

١١ - قوله تعالى : ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾(٦).

قال الواحدي : (قال المفسرون ، أن المسلمين كانوا إذا قالوا لحلفائهم من اليهود آمنوا بمحمد « ﷺ » - قالوا : هذا الذي تدعوننا إليه ليس بخير مما نحن عليه ولوددنا لو كان خيرا)(٧).

---

(١) الآية : ١٤ سورة التغابن .

(٢) الواحدي ، ص ٣٢٢ .

(٣) الآية ١٤ سورة التغابن .

(٤) الطبرى، ١٠/٨١ .

(٥) السيوطي ، أسباب النزول، ص ٢٧٧ .

(٦) الآية : ١٠٥ سورة : البقرة .

(٧) الواحدي ، ص ٢٣ .

من الواضح أن هذه الرواية ليس لها مستند تقوم عليه ولذلك نجد أن الواحدي يعتمد في نقلها على كلام المفسرين فحسب وإن هذا الأكبر دليل على أن ما أورده هنا هو تفسير للآية ثم أن الآية نفسها ليست بمعضلة حتى يتطلب لها سبب نزول يجلي غموضها أو لبسها ولم يورد غيره هذه الآية ضمن أسباب النزول بحسب ما أعلم ـ ووجدنا ابن الجوزي يروى في تفسير هذه الآية (عن أبي عباس أن المقصود بهم هم يهود المدينة ونصارى نجران فالمشركون مشركو أهل مكة ، (أن ينزل عليكم) أي على رسولكم من خير أراد النبوة والإسلام وقال قال أبو سليمان الدمشقي أراد الخير : العلم والفقه والحكمة)(١) .

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾(٢) .

قال الواحدي : قال المفسرون إن المشركين قالوا أترون إلى محمد يأمر أصحابة بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا ما هذا في القرآن إلا كلام محمد يقول من تلقاء نفسه وهو كلام يناقض بعضه بعضا فأنزل الله ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾ (٣) . وأنزل الله ﴿ ما ننسخ من آية . . . الآية ﴾(٤) .

قال ابن الجوزي سبب نزولها أن اليهود قالت : لما نسخت القبلة أن محمدا يحل لأصحابه إذا شاء ويحرم عليهم إذا شاء فنزلت هذه الآية(٥) .

وقال السيوطي : عن ابن عباس قال : ربما ينزل على النبي « ﷺ » الوحي بالليل ونسيه بالنهار ، فأنزل الله ما ننسخ . . .)(٦) .

---

(١) عن أبي الفرج جمال الدين المعروف بابن الجوزي ـ زاد المسير في علم التفسير ـ المكتب الإسلامي ـ الطبعة الثالثة ـ ١٩٨٤ـ١/١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) الآية : ١٠٦ سورة البقرة .

(٣) الآية : ١٠١ سورة النحل .

(٤) الآية ١٠٦ سورة البقرة .

(٥) انظر ابن الجوزي ، مرجع سابق ١/١٢٧ .

(٦) السيوطي ، أسباب النزول – ص ١٩ .

ولا احسب الواحدي هنا إلا أنه وقع في محظور نبه عليه ولم يلتزم به وهو القائل (لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهد التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلاب)⁽¹⁾.

ورواية الواحدي التي جاء ذكرها هنا تشهد بأن الواحدي لم يلزم نفسه بما قال وإلا فأين الرواية أو السماع فيما ذكر ، حيث اكتفى فقط بكلام المفسرين ، هذا بالاضافة إلى أن هذه الرواية لم يتفق عليها من قبل المهتمين بأسباب النزول كإبن الجوزي والسيوطي فكل منهم ذكر رواية مخالفة ، وحتى رواية السيوطي التي ذكرها عن ابن عباس تحتمل الظن وهي ليست أكيدة في ذلك ، أشعرنا بذلك قول ابن عباس (وربما) ، وكأنه لا يجزم بأن هذا سبب نزول الآية ، فهو إذن من باب التفسير ولكن إن كان المقصود أن هذه الآية مما يصدق عليه مثل هذه الروايات فهذا مقبول ، ثم على فرض صحة هذه الروايات مجتمعة فإنه من غير المعقول أن تنزل الآية أكثر من مرة فهذا مستبعد⁽²⁾ خاصة أن أحداث الروايات لم تقع كلها مرة واحدة .

---

(١) الواحدي في مقدمة أسباب النزول .

(٢) وإن كان الزركشي يرى أن المكان أن (ينزل الشيء مرتين تعظيما لشأنه ـ كما قيل في الفاتحة نزلت مرتين مرة بمكة وأخرى بالمدينة ـ وفي قوله تعالى : يسألونك عن الروح ، وقل هو الله احد ، أنظر الزركشي ، مرجع سابق ١ /٢٩-٣٠ ومحمد بن علوي بن عباس المكي ، زبدة الاتقان في علوم القرآن ، دار الإنسان ، القاهرة ، الطبعة الأولى، ١٩٨١، ص ١٤ .

الخاتمة والنتائج

من خلال صحبتنا لكتاب الواحدي « في أسباب النزول » وفي نهاية المطاف لا يسعنا إلا أن نضع نتيجة هذه الصحبة في مجموعة مواقف أو ملاحظات استخلصناها من خلال القراءة في هذا الكتاب آملين أن تحمل الرد على من توهم أن كل آيات القرآن الكريم جاءت بسبب ، وتبين الموقف الصحيح من ذلك ولو بصورة أولية .

١ - بلغ عدد الآيات التي ذكر لها الواحدي سبب نزول أربعمائة وأربعين آية ، وعدد السور التي كان لها في جملتها سبب نزول كذلك خمسة عشر سورة ، في حين تبلغ آيات القرآن الكريم كله ست وثلاثين ومائتان وستة آلاف آية تقريبا ، أي أن نسبة ماله سبب نزول عند الواحدي من آيات القرآن الكريم هو حوالي ١٣٪ بل قد تنخفض هذه النسبة إلى نصف هذا العدد إذا استبعدنا الروايات الضعيفة والموضوعة التي أوردها الواحدي والتي لم نشتغل بنقد أسانيدها في هذه الدراسة .

٢ - علم أسباب النزول من العلوم المحدودة أو المتصلة بوقائع قليلة محددة ! فهل يمكننا القول أن الواحدي لما رأى مادته قليلة راح يستكثر من الروايات التفسيرية وقصص السابقين ، عن طريق الحاقها بموضوع « أسباب النزول » وهي ليست منه ، يبدو لنا ذلك ، وما موقفه من سورة الزلزلة أو الفيل ، أو قريش ، إلا من هذا القبيل .

ونحن لا نتهم الواحدي بالغفلة عن التنبيه إلى مثل هذه الأمور ولا بتعمد إدراج الأخطاء التاريخية ولكننا نرى أنه أحب أن يطيل في موضوع قصير في الأصل ، فوقع فيما وقع فيه .

أو كما قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور : (ذلك أن من يتصدى لتأليف كتاب في موضوع غير مشبع تمتلكه محبة التوسع فيه لا ينفك يستزيد

من ملتقطاته ليذكي قبسه ويمد نفسه فيرضى بما يجد ، رضى الصب بالوعد)(١) .

(٣) قد يغتفر للواحدي استكثاره من الروايات في غير مضامينها لو كان كتابه كتاب تفسير عام لأن أهل التفسير أكثروا من علوم عديدة نظرا لاختلاف الآراء والتأويلات في احتمالات الآي الكريم ، لكنه حين يفرد كتابه بعنوان ويخصصه لموضوع معين هو « أسباب النزول » فقد كان عليه ألا يزج بمثل هذه الروايات على علاتها تحت هذا العنوان أو المفهوم « أسباب النزول » .

لأن هذا العنوان أوهم أن كل ما جاء فيه صحيح في نسبته إلى هذا العلم وهو ليس كذلك ، خصوصا إذا عرفنا أن الواحدي لم يكن ليعلق على رواياته بقليل أو كثير ، مما يوقع القارىء في وهم نسبة هذا الروايات إلى هذا العلم .

ثم إن شهرة الواحدي في كون كتابه أهم المراجع وأسبقها في تناول هذا الموضوع على وجه الخصوص جعل الكثير من العلماء والباحثين يعتمدون عليه اعتمادا كبيرا في نقل مروياته دون تحقيق مثل ما فعل ابن الجوزى الذي نقل بعض روايات الواحدي وأثبتها في تفسيرة دون تعليق !!(٢) .

٤ - بالرغم من تنبيه العلماء والباحثين من المهتمين « بعلوم القرآن » على أنه إذا فيل في الآية نزلت في كذا وكذا فالمقصود به التفسير لاسباب النزول ، إلا إننا نجد من يتخطى ذلك ، لأن هذا قد لا يكون بينا إلا للمختص ، ولكن الباحث غير المتخصص والمتعجل يريد خلاصة سريعة فيما انتهى إليه في هذا المجال لن يطيل التدقيق أو التحقيق في هذه المرويات ، خاصة إذا كان هذا الكلام النظري غير مصحوب بمثال أو أكثر يوضحه .

ولهذا وجدنا من يقول : « نحن لا نتحقق من صدقها فذلك مهمة القدامى »(٣) .

---

(١) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير ١/٤٦ .

(٢) انظر ابن الجوزي في زاد المسير في علم التفسير ، مرجع سابق ١/١٣٥ و١٥١ .

(٣) حسن حنفى - الوحي والواقع - ١٣٥ .

ونسمح لأنفسنا في هذا الموقف أن نعتمد كلام الأستاذ الدكتور أحمد الطيب في الرد على مقولة د . حسن حنفي التي صدرنا بها هذا البحث والتي كانت هذه النقطة ، وهي عدم التحقق من صحة روايات سبب النزول ، أحد أركانها مع الأسف .

(ولقد كنا ننتظر من الأستاذ ألا يقفز ـ بسهولة ـ على معالم شديدة الوضوح في هذا التراث الذي يريد تجديده(١) وأعني بها ما هو معروف من خطأ القول بوجود « سبب نزول» كل آية من آيات القرآن الكريم ، فالذي يعرفه تراث المسلمين في أسباب النزول هو أن « نزول القرآن على قسمين : قسم نزل ابتداء وقسم عقب واقعة أو سؤال .

أما أن القرآن نزل « طبقاً لأسباب النزول وتبعاً لإمكانيات تقبله » فهذا مما لا يعرفه تراث الإسلام ، بل مما يأباه ، وينكره أشد الإنكار والاستاذ نفسه لم يستطيع أن يدعم مقولته هذه بشيء ذي بال من أقوال العلماء ، بل ظلت هذه المقولة في كتابات الأستاذ على طولها أمنية عز عليه تحقيقها لا لشيء إلا لأنها نقيض الأصل الذي جاء يحدثنا عنه ، ثم أن علم أسباب النزول علم يعرف عنه الأستاذ ـ قطعاً ـ أنه اختلطت فيه الحقائق بالأوهام اختلاطاً كثيراً ، وأن الصفحات الأولى من كتاب أسباب النزول للسيوطي ، تسجل على جمع غفير من المفسرين أنهم كانوا يخلطون بين تفسير الآية وسبب نزول الآية وأنهم كانوا يذكرون أسباباً عديدة ـ متضاربة

---

(١) هذا جزء من الردود والمناقشة التى رد بها د . أحمد الطيب على حسن حنفي في كتاباته المختلفة حول قضية تجديد التراث ، التي تعكس في صراحة ووضوح خطة تفسير جديد يعود التراث في ضوئها إلى مصدر مادى هو « الواقع حيث يستند الأستاذ حنفي في نظرته الجديدة إلى علم أسباب النزول « الناسخ والمنسوخ » فإنهما من وجهة نظره ـ يؤكدان تبعية التراث للواقع وارتباطه قوة وضعفاً ، فأن ما عبر عنه القدماء بإسم الناسخُ والمنسوخ ليدل على أن الفكر يتحدد طبقاً لقدرات الواقع وبناء على متطلباته ، إن تراخى الواقع تراخى الفكر وإن اشتد الواقع اشتد الفكر .

أنظر ـ أحمد محمد الطيب ـ التراث والتجديد ـ حولية كلية الشريعة العدد ١١ ـ ١٩٩٣ ص ٤١ - ١٤٢ .

أحياناً - في نزول الآية الواحدة[1] .

٥ - إذا جاءت الرواية ولم تعين أشخاصاً بعينهم أو حتى الإشارة الواضحة إلى جماعة أو فرد بعينه ، فهذا يعد مبهماً ولا ينبغى أن نحمل الآية عليه ، لأن المبهمات مما قد يشجع البعض على الوضع .

٦ - في تعاملنا مع « أسباب النزول » ينبغى أن نحمل الواقعة أو الحادثة على الآية ولا تحمل الآية على الواقعة لأن الحوادث إنما هي طارئة ومؤقتة والقرآن أصل خالد وثابت ولا يحمل الثابت على المتغير ، ولأن غالبية القرآن لم ينزل بسبب وإلا لذهبنا نلتمس لكل أية سبباً وهو ما يتناقض مع الحقيقة والواقع من جهة ومع طبيعة الوحى وأهدافه من جهة أخرى .

٧ - يعمد الواحدي أحياناً إلى بعض الروايات الصحيحة التي ثبتت صحتها ويحمل الآية عليها ويثبتها في اسباب النزول ولو لم تكن من هذا الباب ، فموضوع صحة الحديث عند الواحدي « خاصة » ليس مسوغاً للأخذ بالرواية كسبب لنزول آية بعينها .

٨ - على الرغم من أن الواحدي أكثر وأغرب في ذكر أسباب النزول وذهب كذلك إلى القول أنه « لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها » والذي راح فوق ذلك يجزىء الآية الواحدة ويحاول تنزيل رواياته على أي جزء يناسب الآية في السياق القرآني ، إلا أنه لم يقل أن كل أية نزلت بسبب وإن أوهم منهجه أو جملة مواقفه ذلك ! وليست مهمة الباحث المعاصر تأكيد الأوهام ولكن تصحيحها ، ووضع الكلام في سياقه الصحيح .

وأخيراً أرجو أن تكون هذه المسوغات التى ذكرت كافية في رد وهم من توهم أن كل آيات القرآن لم تنزل إلا بسبب معين ومبينة لسبب هذا الوهم .

والحمد لله رب العالمين

---

[1] المرجع السابق ص ١٤٢ - ١٤٣ .